التفكير العلمي

Mohamed Rabie

التفكير عملية ذهنية يحاول الإنسان من خلال استخدام عقله أن يتعرف على مكونات بعض الأشياء التي تعنيه، وتقدير قيمتها المعنوية والمادية بالنسبة له وللمجتمع الذي ينتمي إليه ويسعى لخدمته، وإيجاد حلول لبعض الإشكاليات والتحديات التي تواجهه، مستخدما مواهبه الفطرية وملكاته العقلية ومعارفه العلمية وتجربته الحياتية. الأمر الذي يعني أن العقل هو الأداة التي يستخدمها الإنسان لاكتشاف الفرص المتاحة، والأخطار المتوقعة؛ إلى جانب معرفة الحقيقة، علما بأنه لا يوجد شيء في الكون يشكل حقيقة مطلقة، لأن الحقيقة، كي تكون مطلقة، وجب أن يتوافق جميع البشر على وجودها وتعريفها وتحديد دورها في حياتهم.

وبسبب تعرض كل عقل للخطأ، فإن ما يسمى "المنطق" تم تطويره كآلية لتعزيز فرص النجاح وتقليل احتمالات الخطأ. وينطلق المنطق من القاعدة التي تقول بوجوب اتباع منطق الأشياء حين يتم اختيار الفرضيات، وأن المنطق يستوفي شروطه حين تكون الفرضيات التي ينطلق منها العقل لدراسة ظاهرة ما متوافقة أو منسجمة مع النتائج. وفي حال عدم انسجام النتائج مع الفرضيات، أو تناقضهما، يكون على الباحث أن يقوم بإعادة إجراء تجاربه انطلاقا من فرضيات مختلفة، تكون في الغالب أكثر واقعية من السابقة؛ وهذا ما يفعله العقل العلمي في العادة. أما العقل العقائدي فيقوم في بعض الأحيان بتزييف النتائج لتتوافق مع الفرضيات، أو لوم الآخر في فشل توافق النتائج مع الفرضيات. وهذا من شأنه أن يقود إلى تكريس الأخطاء مع إضفاء قدر من الشرعية عليها، ما يجعل من الصعب رفضها في مجتمع تهيمن عليه عقيدة دينية أو سياسية اجتماعية كالقومية، أو اقتصادية مادية كالماركسية أو رأسمالية ديمقراطية كما هو الحال في أمريكا. وعلى سبيل المثال، قام العرب بعد فشلهم في حرب 1967 أمام إسرائيل بإلقاء مسؤولية الفشل على أمريكا بسبب تدخلها وانحيازها لجانب إسرائيل ومدها بالأسلحة؛ الأمر الذي تسبب في فشل العرب في دراسة أسباب الهزيمة وطرق الخروج منها، وقاد إلى تكرر هزائم العرب، واستمرار تخلفهم عن معظم شعوب العالم.

حين تأتي القناعات العقائدية قبل صحوة الوعي ونضوج العقل، فإن المواقف والآراء المترتبة عليها تميل إلى الجمود والتواكل، ما يجعلها تقف عقبة تحول دون تقدم الإنسان والمجتمع وحل الإشكاليات الفردية والمجتمعية. في المقابل، حين تأتي القناعات العقائدية والفكرية بعد نضوج العقل وصحوة الوعي، فإن المواقف المترتبة عليها تكون في العادة مرنة وذات بعد علمي، ما يجعلها تسهم في تقدم الإنسان والمجتمع، وحل اشكالياته. في الحالة الأولى تقوم القناعات المترسخة في الوجدان بمحاصرة العقل وتكبيله، وأحيانا تعطيله عن العمل، لأنها تأتي في صورة مسلمات وحتميات ومقدسات ينظر

المجتمع العقائدي إليها بوصفها بديهيات لا تحتاج إلى تحليل أو تفسير. أما في الحالة الثانية، فإن القناعات تقوم باطلاق العنان للعقل كي يفكر ويبدع ويواجه تحديات زمنه، مستخدما ما لديه من علوم ومعارف وتجارب حياتية شارك جميع البشر في تطويرها.

ولما كانت القناعات العقائدية تأتي في العادة في صورة بديهيات ومسلمات لا تحتاج لتفكير ولا تخضع للشك أو التساؤل، فإن من الصعب إقناع عقائدي بإعادة النظر فيما يؤمن به. ولما كان كل عقائدي يحرم نفسه، بإرادته، من حق التساؤل، فإنه قلما يسمح لغيره بمساءلته أو نقد مواقفه؛ وهذا من شأنه أن يتسبب في تجزئة المجتمع الواحد إلى فئات ثقافية وفكرية تقف على طرفي نقيض يصعب التوفيق فيما بينها. الأمر الذي يقود إلى حدوث تمحور فكري وعقائدي في المجتمع الواحد يحول دون حدوث تحاور بناء بين مختلف مكوناته، كما هو الحال في عامة المجتمعات العربية. ومع حدوث التمحور تتقلص قدرات المجتمع على التفكير الجماعي والعمل المجتمعي، فيما يضعف الانتماء للوطن، وتُستبدل الهوية الوطنية الجامعة بهويات طائفية ومذهبية تعمل على تكريس تجزئة المجتمع وتفككه.

من ناحية ثانية، علمنا أن ندرك أن للطبيعة قوانين ثابتة لا تحيد عنها، ولا يمكن للبشر تغييرها؛ وهذه قوانين قد تكون من صنع خالق الكون، كما يدعي المؤمنون بوجود الله وجبروته، وقد تكون قد تطورت تلقائيا على مدى مئات البلايين من السنين وموت وميلاد عشرات البلايين من الكواكب، كما يعتقد المؤمنون بنظرية التطور. البشر لا يستطيعون بما لديهم من علم وعقول وأدوات تغيير قوانين الكون، إلا أن الله قادر على ذلك، لكن مع أن الله قادر على تغييرها، إلا أنه ليس من المعقول أن يغير قوانين صنعها وأحكم صنعها ارضاء لشخص أو أمة دون غيرها، لأن هذا يتنافى مع العدل الإلهي أولا، ويربك الكون ثانيا، ما قد يؤدي إلى اختلال ما تعيشه الكواكب من توازن.

إن كل من قرأ التاريخ يدرك أن أساليب التفكير والبحث العلمي لم تكن موجودة لدى المؤرخين القدامى، الذين قاموا بكتابة تاريخ الإسلام والإمبراطورية العربية الإسلامية، وقبلها الإمبراطوريات الأكثر قدما مثل الإمبراطورية البابلية والرومانية، ما جعل طرق تفكيرهم بدائية وليست علمية؛ الأمر الذي جعل المؤرخين يعتمدون على الخيال والأساطير بوصفها مراجع موثوقة؛ لذلك لا يجوز اعتبارها علمية حتى وإن استخدمت العقل. وفي الواقع لم يكن لدى المؤرخ الذي سجل أحداث الماضي وسيرة الرسول والأحاديث المنسوبة إليه أدوات يستخدمها غير العقل، لكن ذلك العقل أفتى فيما بعد بنفي العقل، ما جعل أحمد بن حنبل يقول عن الكتب بدعة، "ويكره الكتب كراهية شديدة"، كما جاء على لسان ابنه عبد الله. أما ابن تيمية فقال "العقل أداة نقل وتنزيل وليست أداة فهم وتأويل"؛ ولقد تبع ذلك قيام الفقهاء بقفل باب الاجتهاد في الدين، ما جعلهم يقومون، وبمحض إرادتهم، بإخراج الإجتهاد والتراث الفقهي من التاريخ الحضاري للإنسانية، ما جعلهم يفشلون في مجاراة التطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية منذ أكثر من آلف سنة وحتى الآن.

لذلك نلاحظ أن أكثر الناس تفاخرا بالتراث وإنجازات العرب القدامى هم أكثر الناس عداء للعقل والمنطق واستحقاقات العلم الحديث، لأنه يتناقض مع مراجعهم وقناعاتهم وطرق تفكيرهم غير العلمية.

إن رأي ابن تيمية هذا يشبه كثيرا رأي (أنسلم) أحد كهنة القرن الحادي عشر المسيحيين الذي قال، "إنني لا أسعى أن أفهم كي أومن، وإنما أومن كي أفهم... أني أعتقد أن عليّ أن أومن أولاً، وإلا لن أفهم"، وكأنه يقول إن من لا يؤمن بالمسيحية لا يمكن له أن يفهم شيئا. وهذا يعني أن الإيمان، بالنسبة لأنسلم وابن تيمية، يسبق الفهم، لكن الإيمان بدون فهم عبارة عن حفظ بعض الطلاسم التي تجعل صاحبها يتنازل عن العقل ويلغي دوره في الحياة. ومع أنه من الممكن أن يقوم الإيمان بإيصال مؤمن إلى إدراك الحقيقة الإلهية، إلا أنه يؤدي إلى إغلاق الطريق المؤدية إلى معرفة الحقيقة العلمية، وما قد يتعارض مع الإيمان من حقائق اجتماعية واقتصادية وغيرها من أمور مشابهة. لذلك نلاحظ أن كل مؤمن يبدى رغبة كبيرة في الإيمان، وامتعاضا من التفكير، وذلك لأن الإيمان سهل يريح النفس والضمير، لكن التفكير صعب يقلق النفس ويزيد عدد التحديات. ومع الابتعاد عن التفكير، يبتعد المؤمن عن القراءة، ويفقد غريزة حب الاستطلاع، ويتنازل عن دور العقل في إدارة شؤن الحياة.

كان وقوف الكنيسة الكاثوليكية في بداية عصر النهضة الأوروبي ضد العلم أحد أسباب قيام نسبة كبيرة من أتباعها برفض تعاليمها وأداء الشعائر الدينية. وفيما كان العلم يحقق الإنجاز تلو الآخر، كان الدين يقف عاجزا عن تحقيق أي إنجاز يذكر في ميادين الحياة المختلفة، فيما كان ينظر بعين الشك للعلم ويُكفر العلماء؛ وهذا ما حدث عبر تاريخ العرب منذ العصر العباسي. لكن الابتعاد عن الدين الذي حدث في الغرب ويحدث في بلاد العرب لم يقم برفض وجود الله، وإنما قام برفض الاعتراف بصواب فكر المؤسسة الدينية. الأمر الذي يعني أن بقاء التراث الفقهي على حاله وبقاء التراثيين على مواقفهم من المؤكد أن يزيد عدد المسلمين الرافضين لمنطق رجال الدين ومنهجهم في التفكير وتراثهم الذي يدافعون عنه بشراسة تصل أحيانا حد ارتكاب الجرائم.

هل تستطيع مؤسسة دينية، إسلامية أو غير إسلامية أن تنكر دور العلم في تحقيق التقدم ونهضة الشعوب؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فلماذا تقوم المؤسسة الدينية في بلاد العرب بالشك في العلم والتشكيك في العلماء وتكفيرهم أحيانا؟ وهل أسهمت المؤسسة الدينية قديما أو حديثا في تحقيق نهضة وتقدم لأي شعب عبر التاريخ؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فلماذا تنحاز أنظمة الحكم العربية في معظم الأحيان إلى جانب الفقهاء وتتخلى عن المفكرين والعلماء؟ الجواب على هذين السؤالين كافي بحد ذاته لتحديد أسباب تخلف العرب عن عصرهم وكل عصر سابق منذ سقوط بغداد على أيدي التتار. وباختصار، يمكن القول أن التفكير العلمي هو التفكير المنهجي الذي يبتعد عن الأساطير والخرافات والتقليد وحكمة

الأزمنة القديمة، ويعتمد في تحليله للواقع وقراءة المستقبل على مراجع أربعة أساسية، هي: العقل والمنطق، والعلم والمعرفة، والتجربة الإنسانية، ومنطق الأشياء.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970 من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد ربيع

www.yazour.com

Links to Google Scholar and ResearchGate.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed